الموشحات الاندلسية

التعريف بالموشحات

الاقفال . الابيات . الاجزاء . الخرجة . اوزانها .

الموشحات فن جديد في شعر المتقدمين استنبطه اهل الاندلس وسموه موشحاً لما فيه من الصنعة والتزيين، فكأنهم نظروا الى وشاح[1] المرأة وما فيه من ترصيع وتكريس[2]، وتفصيل فشبهوه به في اسماطه وابياته واقفاله .

ولابن سناء الملك تعريف ضاف بالموشحات في كتابه دار الطراز يستخلص منه ان الموشح يتألف في الاكثر من ستة اقفال وخمسة أبيات، ويقال له التام . وربما تألف من خمسة اقفال وخمسة ابيات وقيل له الاقرع . والتام ما ابتدئ فيه بالاقفال، والاقرع ما ابتدئ فيه بالابيات .

والاقفال اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل قفل منها متفقاً مع سائرها في وزنه وقوافيه وعدد اجزائه كقول ابن الخطيب :

جَادَكَ ٱلْغَيْثُ، إِذَا ٱلْغَيْثُ هَمَى، يَا زَمَانَ ٱلْوَصْلِ بِٱلْأَنْدَلُسِ !
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُماً فِي ٱلْكَرَى، أَوْ خُلْسَةَ ٱلْمُخْتَلِسِ

فهذا القفل يتردد ما يشابهه وزناً وقافية وعدد اجزاء، ست مرات في الموشحة لانها تامة .

---

(١) الوشاح : شبه قلادة من ادم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها او هو كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما، معطوف احدهما على الآخر .

(٢) التكريس : ان ينظم اللؤلؤ والخرز في خيط ثم يضما مفصولين بخرز كبار . ومنه قلادة ذات كرس او ذات كرسين .

والابيات اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل بيت منها متفقاً مع سائر ابيات الموشح في الوزن وعدد الاجزاء، لا في القافية كقول ابن الخطيب بعد القفل الذي اوردناه :

إذْ يَقُودُ ٱلدَّهْرُ أَشْتَاتَ ٱلْمُنَى، نَنْقُلُ ٱلْخَطْوَ عَلَى مَا تَرْسُمُ (١)
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا، مِثْلَمَا يَدْعُو ٱلْحَجِيجَ ٱلْمَوْسِمُ (٢)
وَٱلْحَيَا قَدْ جَلَّلَ ٱلرَّوْضَ سَنَا، فَثُغُورُ ٱلزَّهْرِ فِيهِ تَبْسِمُ (٣)

فهذا البيت يتردد في سائر الموشحة خمس مرات بوزنه وعدد اجزائه، ويختلف في قافيته، مثال ذلك السمط الثاني منها حيث يقول في قفله :

وَرَوَى ٱلنُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ ٱلسَّمَا، كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ (٤)
فَكَسَاهُ ٱلْحُسْنُ ثَوْبًا مُعْلَمًا، يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ (٥)

ويقول في بيته :

فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ ٱلْهَوَى، بِٱلدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ ٱلْغُرَرِ (٦)
مَالَ نَجْمُ ٱلْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى مُسْتَقِيمَ ٱلسَّيْرِ، سَعْدَ ٱلْأَثَرِ (٧)

---

(١) اشتات : جمع شَتّ وهو المتفرق . ترسم : تأمر . يقول : ان الدهر كان طائعاً لنا يقود الينا المنى ونحن نسير على ما ترسمه هذه المنى . (٢) زمرًا : جماعات، مفردها زمرة؛ نصبت على الحال من ضمير ننقل . فرادى : واحداً واحداً . ثنا : اثنين اثنين . الحجيج : من يحجون الى الاماكن المقدسة . الموسم : مجتمع الحج في مكانه . (٣) الحيا : المطر . جلل : غطى . (٤) النعمان : ملك الحيرة ابن المنذر اللخمي، والمراد هنا شقائق النعمان . ماء السماء : ام المنذر اللخمي وجدة النعمان، والمراد هنا المطر . مالك : امام المدينة واحد الائمة الاربعة، وأنس والده . يقول : ان زهر الشقائق روى لنا عن والده المطر كيف كان يروي مالك عن والده انس رواية صدق . وصدق رواية الشقيق عن المطر بادٍ في إزهاره وحسن منظره، وفي المصراع الاول توريتان ظاهرتان . (٥) معلماً : مطرزاً مرقوماً . (٦) الغرر : جمع غرة، اي طلعة وجوه الحسان . (٧) شبه كأس الخمر وهي تدور عليهم، وهم في لهو وهناء، بنجم مطلعه سعد يسير في اصحابه سيراً مستقيماً، ويترك لهم اثاراً طيبة .

وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ

ويتركب القفل من فقرة واحدة وجزئين فصاعداً الى اربع فقر وثمانية اجزاء او عشرة . فمثال الفقرة الواحدة والجزئين :

بِٱللهِ يَا سَقَّاكْ ، أَغْمِدْ ظُبَاكْ !

ومثال الفقرتين والجزئين :

أَيُّهَا ٱلسَّاقِي إِلَيْكَ ٱلْمُشْتَكَى ، قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعِ

ومثال الفقرة الواحدة والاجزاء الثلاثة :

يَا لَيْلَةَ ٱلْوَصْلِ ، وَكَأْسَ ٱلْعُقَارْ ، دُونَ ٱسْتِتَارْ ، عَلِّمَانِي كَيْفَ خَلْعُ ٱلْعِذَارْ

ومثال الفقر الاربع والاجزاء الستة :

مَا لِلْمُوَلَّهْ ، مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيقْ ، يَا لَهُ سَكْرَانْ
مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ ، مَا لِلْكَئِيبِ ٱلْمَشُوقْ ، يَنْدُبُ ٱلْأَوْطَانْ

والبيت يكون مفرداً ، واجزاؤه ثلاثة او اكثر ؛ فمثال الثلاثة :

إِنَّ ٱلْمَسَاوِيكَا ، مَحْسُودَةٌ فِيكَا ، عَلَى لَمَى فِيكَا

وقفله :

يَا لَيْتَنِي مِسْوَاكْ ، عُودِ ٱلْأَرَاكْ !

ويكون مركباً ، واكثره ما جاء على فقرتين وثلاثة اجزاء كما في موشحة ابن الخطيب ، وربما زاد على ذلك او نقص . وقد يجيء فيه نصف جزء كقول بعضهم وهو فقرتان وثلاثة اجزاء ونصف جزء :

مَنْ أَوْدَعَ ٱلْأَجْفَانْ ، صَوَارِمَ ٱلْهِنْدِ
وَأَنْبَتَ ٱلرَّيْحَانْ ، فِي صَفْحَةِ ٱلْخَدِّ
قَضَى عَلَى ٱلْهُيَامَانْ ، بِٱلدَّمْعِ وَٱلسُّهْدِ
أَنَّى وَلِلْكِتْمَانْ .

وقفله :

لِلهَائِمِ ٱلْمُغْرَمْ ، بِـدَمْعٍ نَمّ ، إِذْ يُنْجِمْ ، بِمَا يُكْتَمْ[1]
مِنَ ٱلسِّرِّ ، فِي عَاطِلِ حَالٍ ، عَزِيزٍ سَاطْ ، عَلَيَّ بِٱلدَّعَجْ[2]

والقفل الاخير في الموشحة يقال له الخرجة ، وشرطها ان تكون عامية غير معربة الا في المدح ، فمثال العامية :

أَنَا قُولْ : قُوقُو ، لَيْسْ بِٱللهْ تَذُوقُو

واكثر ما تجعل على السن الجواري والغلمان والسكارى ؛ وربما جاءت على السن الحيوان والطير والاشياء المعنوية كالحب والحرب وما اشبه . ولا بد ان يرد في البيت قبلها قال او قلت او يقول ، او ما يغني عنه كغنى وشدا ؛ فان الخرجة التي اوردنا قد مُهد لها في البيت قبلها بقوله :

لَمَّا أَنْ تَسَرْبَلْ ، ثَوْبَ ٱلْحُسْنِ زَيَّا ، أَرَدْتُ أُقَبِّلْ لَمَاهُ ٱلشَّهِيَّا
فَقَالَ تَمَثَّلْ ، بِٱلشِّعْرِ أَبِيًّا ، وَمَالَ تَدَلَّلْ ، بِأَجْلَى مَقَالِ :
أَنَا قُولْ : قُوقُو ، لَيْسْ بِٱللهْ تَذُوقُو

والموشحات منها ما جاء على اوزان العرب ، ومنها ما خالفها . فاما الموزون فيعده اصحاب الصنعة مرذولاً الا اذا اختلفت قوافي قفله كما في موشحة ابن الخطيب « جادك الغيث » او اخرج من الوزن بكلمة او حركة تتخلل ابياته ، مثال الكلمة :

صَبَرْتُ ، وَٱلصَّبْرُ شِيمَةُ ٱلْعَانِي ، وَلَمْ أَقُلْ لِلْمُطِيلِ هِجْرَانِي :
مُعَذِّبِي كَفَانِي !

فهذا من المنسرح ، واخرجه منه معذبي كفاني . ومثال الحركة :

يَا وَيْحَ صَبٍّ إِلَى ٱلْبَرْقِ لَهُ نَظَرُ ، وَفِي ٱلْبُكَاءِ مَعَ ٱلْوُرْقِ لَهُ وَطَرُ

فحركة الخفض في البرق والورق والتزامها كالقافية خرجا بالبسيط عن وزنه .

---

(١) الباء في قوله بما يكتم متعلق بنم . (٢) العاطل : ضد الحالي ، والحالي المقترن بالحلى . ساط : اسم فاعل من سطا . الدعج : العيون الشديدة السواد مع سعة ؛ مفردها دعجاء .

وقد تكون اقفال الموشح موافقة لابياته في الوزن وقد تكون مخالفة لها .

وما ما خالف وزان العرب فمنه ما له وزن خاص يدركه السمع ويعرفه الذوق من غير احتياج الى ميزان العروض، وهذا كثير في الموشحات . ومنه مفكك النظم لا يحس له وزن ولا وقع، وهذا يحسن في الغناء، ولا يحسن في الانشاد .

وربما بنيت الموشحة على بيت من الشعر مشهور يجعل على سبيل التضمين في القفل او البيت . وربما بنيت على عدة ابيات من قصيدة، كقول ابن الوكيل مضمناً من قصيدة ابن زيدون : « اضحى التنائي ... »

مَنْ هَامَ بِالْغِيدِ ، لَاقَى بِهِمْ هَمَّا ،
بَذَلْتُ مَجْهُودِي ، لِأَحْوَرِ أَلْمَى [1]
يَهُمُّ بِالْجُودِ ، وَرَدَّ مَا هَمَّا
وَعِنْدَ مَا قَدْ جَادْ ، بِالْوَصْلِ أَوْ قَدْ كَادْ ، أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا
يَا جِيرَةً بَانَتْ ، عَنْ مُغْرَمٍ صَبِّ
لِعَهْدِهِ خَانَتْ ، مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبِ
مَا هٰكَذَا كَانَتْ عَوَائِدُ الْعُرْبِ
لَا تَحْسَبُوا الْبُعْدَا ، يُغَيِّرُ الْعَهْدَا ، أَنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَا

---

(١) الالمى : من كان باطن شفته مشرباً سواداً ، وبارد الريق .

اختراعها

مقدم بن معافر . ابن المعتز . دخولها الشرق . الخروج على نظام الشعر في الشرق . الاندلس والجديد فيها . تأثير اختلاط العرب بالفرنجة . استعراب الاسبانيين . تأثير الاختلاط في الازياء ، ولغة التخاطب ، والغناء ، والادب والموشحات ، وانانيد التروبادور .

قال ابن خلدون في مقدمته : « واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنًّا سموه بالموشح . » اهـ.

وقال ايضاً : «وكان المخترع له بجزيرة الاندلس مقدَّم بن معافر القَبْري من شعراء الامير عبدالله بن محمد المرواني ، واخذ ذلك عنه ابو عبدالله احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما . فكان اول من برع في هذا عُبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمَرية . »اهـ

واورد ابن خلدون بعض توشيح لعبادة يقول فيه :

بَـدْرٌ تَمَّ ، شَمْسُ ضُحَى ، غُصْنُ نَقَا ، مِسْكٌ شَمَّ[1]
مَا أَتَمَّ ، مَـا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا ، مَـا أَنَمّ

فيتبين من كلام صاحب المقـدمة ان الموشحات ظهرت بالاندلس في القرن الثالث للهجرة ، لان خلافة الامير عبدالله بن محمد كانت من سنة ٢٧٥ الى ٣٠٠هـ. (٨٨٨ ـ ٩١٢ م) . على انه لم يصل الينا شيء من موشحات مقدم بن معافر مخترع هذا الفن ، ولا من موشحات ابن عبد ربه ، لان موشحاتهما كسدت واهملت ولم يروها الناس . واقدم ما وصل الينا مـا جاءنا عن عبادة القزاز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ . (١٠٣٠ م) .

وفي ديوان ابن المعتز العباسي موشحة لطيفة ، لو صحت نسبتها اليه ، لما بقي فضل

---

(١) النقا : الكثيب من الرمل .

اخترع هذا الفن لاهل الاندلس؛ لان ابن المعتز كان معاصراً لمقدم بن معافر، ومقدم كسدت موشحاته لغثاثتها، وابن المعتز خلدت موشحته لجودتها[1]. غير اننا نشك في صحة نسبتها اليه، لاسباب: منها ان مؤرخي ابن المعتز لم يذكروه في عداد الوشاحين، ولا ذكروا موشحته هذه. ومنها ان هذه الموشحة رويت لشاعر آخر يقال له الحفيد ابن زهير، ولعله اندلسي[2]. ومنها ان ديوان ابن المعتز لا يحتوي غير هذه الموشحة، فلو عرف صاحبه فن التوشيح لاكثر منه لانه يتلاءم مع اغراضه التي اختص بها، كوصف الطبيعة ومجالس اللهو والشراب. ومنها انه لم ترو موشحة لشاعر مشرقي غير ابن المعتز في العصر العباسي الثاني، ولا رويت موشحة لشاعر في العصر الثالث. ومنها ان المؤرخين اتفقوا على نسبة الموشحات الى اهل الاندلس لانها من مستنبطاتهم، ولم يذكروا مشرقياً في الوشاحين قبل ابن سناء الملك المصري، من شعراء العصر العباسي الرابع. فهذه الاسباب تعزز شكنا في موشحة ابن المعتز، وتعزز اعتقادنا ان الشرق لم يعرف هذا الفن الا في اواخر الاعصر العباسية، بعد ان شاع وازدهر في الاندلس، وظهر بها امثال عبادة القزاز وابي بكر بن زُهر[3]، وابن بَقي[4]، والاعمى

---

(١) اول هذه الموشحة:

ايها الساقي اليكَ المُشتكى، قد دعوناكَ وإنْ لم تسمعِ

. . .

ونديمٍ همتُ في غُرَّتهِ، وبشُربِ الراحِ من راحَتهِ
كُلَّما استيقظَ من سَكرتهِ جَذَبَ الزقَّ اليه واتكا، وسقاني أربعاً في أربعِ

(٢) رويت للحفيد بن زهير كما رويت لابن المعتز في كتاب «العذارى المائسات في الازجال والموشحات» لجامعه فيليب قعدان الخازن. ولعله الحفيد بن زُهر لان ابناء زهر اشتهروا في الاندلس بعلومهم واداجم، ولاسيما ابو بكر بن زهر الذي شرّقت موشحاته وغرّبت كما يقول ابن خلدون. وقد ورد اسمه محرفاً من زهر الى زهير في مقدمة ابن خلدون وفي العذارى المائسات. فلا يبعد ان يكون وقع هذا التحريف على الحفيد ايضاً. (٣) ابو بكر محمد بن زهر الاشبيلي من انبغ عائلة زهر المشهورة بالاندلس. كان طبيباً واديباً، اتصل بدولة المرابطين، والموحدين من بعدهم، ومات مسموماً في آخر سنة ٥٩٥ هـ. (١١٩٨ م) وكانت ولادته سنة ٥٠٧ هـ. (١١١٣ م). (٤) هو ابو بكر يحيى بن بقي القرطبي له موشحات بديعة توفي سنة ٥٤٠ هـ. (١١٤٥ م).

التُطيلي[1]، وابن باجة[2]، وسواهم من الوشاحين المشهورين .

ولم يحدث هذا الفن الجديد دون ان يلقى مقاومة وانكاراً، فان جماعة المحافظين على القديم تجهموه وعدوه خروجاً على الاصول وضعفاً، وعابوا اصحابه، ولكن سيله طما وطغى واجترف مقاوميه .

ولا بد من القول ان الخروج على نظام الشعر ظهر عند المشارقة في صدر الدولة العباسية . فان بعض الشعراء اخذوا ينظمون الفنون العلميـــة والقصص الطويلة مزدوجات، اذ لا يستطاع نظمها على قافية واحدة، كما فعل أبان بن عبد الحميد في كليلة ودمنة . ونظموا ايضاً المسمطات والمخمسات، كما فعل قُطْرُب في مثلثاته . غير ان فحول الشعراء تحاموا هذه الانواع ورأوا فيها عجزاً وضيقاً، وآثروا التزام القافية الواحدة، الا بشاراً وابن المعتز . فقد ذكر ابن رشيق ان الاول كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر . واما الثاني فصنع مزدوجة في ذم الصبوح، واخرى في سيرة المعتضد .

وسرى فن المسمطات والمزدوجات من الشرق الى الغرب كما سرى غيره من الفنون والعلوم . فنظم فيه شعراء الاندلس، فعل ابن عبد ربه في مزدوجته التي ذكر بها غزوات الخليفة الناصر . والاندلسيون اسرع الى الخروج على القديم من المشارقة، لان الشرق مهد العربية، وظل البادية ؛ لا ينفك البدو يختلفون الى امصاره، وابناء الامصار يختلفون الى باديته . فروح العروبة فيهم ارسخ واقوى، مهما غلوا في تجديدهم، وافرطوا في انكار قديمهم . واما الاندلس فلم تكن قرارة العرب قدماً، وهي من شمالها محاطة بدول نصرانية اعجمية، ومن جنوبها بقبائل بربرية مغربية . ولولا اعراق

---

(١) هو ابو جعفر احمد بن عبدالله التُطيلي، منسوب الى تُطيلة مدينة بالاندلس، نسبه اليها صاحب نفح الطيب . واما صاحب قلائد العقيان فقد نسبه الى طُليطلة . عاش بين القرن الرابع والخامس للهجرة (القرن العاشر والحادي عشر) واشتهر بالشعر والنثر والتوشيح . (٢) هو ابو بكر محمد بن باجَة التُجيبي السَرَقُسْطي، الفيلسوف الطبيب المعروف بابن الصائغ، كان شاعراً اديباً وشاحاً، ووزيراً للامير ابي بكر الصحراوي صاحب سرقُسطه من قبل المرابطين . توفي مسموماً في مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٣٣ هـ . (١١٣٨ م) .

بعض الأسر الاندلسية في العروبة ، ومناصرة الملوك للادب والادباء، وشغفهم برواية الشعر الجاهلي، وترددهم في الشرق، وتردد المشارقة في بلادهم؛ لم رسخت ملكة الفصاحة هنالك . وخصوصاً ان العرب الذين نزحوا الى الاندلس اكثروا من الزواج بالنساء الاسبانيات، وسواهن من الاوربيات ، فولدن لهم اولاداً يعتلج في عروقهم الدم الشرقي والغربي، فكانت لهم عادات وطباع وازياء وفنون يختلفون بها عن عرب المشرق جد الاختلاف، ويقتربون بها من النصارى الاسبانيين كل الاقتراب.

وقد ظهر اثر هذا الاختلاط في استعراب النصارى واليهود من اهل الاندلس، واتقانهم لغة الضاد وآدابها . وفي طراز بنائهم المستعرب (mozarabe)، وفي انتشار العلوم الدخيلة بالممالك الاسبانية، وفي استعمال الحروف العربية ببعض ولاياتها ، ويسمون ذلك عندهم بالادب العجمي (Litteratura aljamiada) . ثم في اتخاذ المسلمين ازياء النصارى، فقد ذكر صاحب نفح الطيب ان الاندلسيين العرب غلب عليهم ترك العمائم، فكان عزيز بن خطّاب اكبر عالم في مُرسية يخطب في حضرة السلطان وهو حاسر الرأس . وكان ابن هُود وابن الاحمر بدون عمامة ايضاً . وكثيراً ما كان سلاح السلاطين والجنود كسلاح النصارى، واقبيتهم كاقبيتهم . واثرت العجمة في لغة التخاطب عندهم ، فانحرفوا بها عما تقتضيه الاوضاع العربية، حتى اذا تكلم احدهم بالاعراب، وجرى على قوانين النحو، استثقلوه واستبردوه .

وكذلك الغناء، أثّر فيه اختلاط العرب بالاسبانيين تأثيراً بليغاً، واثّر ايضاً في الشعر الذي يتغنى به . وكانت مجالس الطرب في الاندلس على انتشار عظيم، وانعقاد مستمر . فان جمال الاندلس وخصبها، وغنى اهلها، من دواعي اللهو والعبث . ولا شيء ادعى الى اللهو من الغناء والطرب، فلا غرو ان يشيع هذا الفن، ويكون له المقام الرفيع، وتكثر مجالسه ويعظم قدر المغنين . وتحسبك ان تعلم كيف احتفى عبد الرحمن الثاني بزرياب، لتتبين منزلة الغناء والمغنين .

ولا ريب ان لزرياب يداً طولى في رفع شأن الغناء بالاندلس لما ادخل عليه من التحسين . قال فيه ابن خلدون : « فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف، وطما منها باشبيلية بحر زاخر . »

ولم يكن للاسبانيين موسيقى راقية قبل الفتح الاسلامي . فلما افتتحت الاندلس وانتشر الغناء العربي، تهذبت موسيقاهم ، واصطبغت بالوان عربية بينة . منها انهم اتخذوا الشابة من آلات الغناء وهي عربية الاصل . ومنهم اناشيد يسمونها بالزجل (Segrel) وهي مأخوذة عن الزجل العربي . وعندهم طرب بمعنى الف الالحان، وطروب بمعنى مؤلف الالحان . وعندهم ربع صوت، وثلث صوت . واجزاء الاصوات عربية لا يستعملها في اوربة غير الاسبانيين . وتقاطيعهم الصوتية تجري على نغم واحد كالتقاطيع العربية . ومن الفاظهم ما يراجع في الغناء غير مرة، كما يراجع لفظ يا ليل في الغناء العربي .

وكان الادب الاسباني قبل دخول العرب رومانيا يتعهده الرهبان في اديارهم منذ القرن الخامس للمسيح . ولكنه لم يشمل طبقات الشعب كلها ، لان العامة لم تتأثر بالعلوم اللاتينية الراقية، وانما كان منها شعراء ومغنون لهم ادب شعبي خاص لا يختلف ، فيما نُرى ، عن ادب عامة الغاليين لما بين الامتين من الاتصال ، ولما كان لجماعات الجنكلر من يد في نشر هذا الادب .

وجماعات الجنكلر[1] عُرفوا في غالية بين القرن السابع والثامن، وكانوا يطوفون البلاد رجالا ونساء ، يتغنون باناشيدهم . واناشيدهم منها حماسية، ومنها غرامية ، ومنها قصص نثرية . وليست هذه الاغاني شعرا صحيح الاوزان مطّرد القوافي، وانما هي مقاطع لا ضابط لها، وربما اتحدت في اواخرها المخارج الصوتية اتحاداً غير ملتزم .

فاما، وقد علمنا ما كان بين العرب والاسبانيين من الامتزاج القوي في السكنى والزواج والبناء واللغة والعلوم والازياء والغناء، فغير عجيب ان يشمل هذا الامتزاج الادب ، فيسمع العرب اناشيد الجنكلر ، فتنبههم في القرن التاسع الى استنباط اناشيد للغناء طليقة القوافي والاوزان سموها بالموشحات . وكان لهم من مزدوجاتهم ومخمساتهم سابقة في الخروج على القافية الموحدة، غير انهم لم يتخلوا منها اصلًا لتعودهم

(١) الجنكلر : جماعة من الرواة والقاصين والمغنين .

اياها ، ثم لانها عنوان رقي شعرهم ؛ فجاءت موشحاتهم مختلفة الاوزان والقوافي، شاذة عن النظام الشعري المألوف .

ودليلنا على ان العرب استنبطوا الموشحات من اجل الغناء، هو انهم كانوا يراعون فيها التلحين مطلقاً وان افضى الى افساد التعبير . قال ابن سناء الملك : « والموشحات تنقسم من جهة اخرى الى قسمين : قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر الى ما يعينه عليه، وهذا اكثرها . وقسم لا يحتمل التلحين، ولا يشي الا بان يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغني كقول ابن بقي :

مَنْ طَالِبٌ ثَأْرَ قَتْلَى . ظَبْيَاتِ ٱلْخُدُوجْ . فَتَّانَاتِ ٱلْحَجِيجْ[1]

فان التلحين لا يستقيم الا بان يقول : لا لا بين الجيمين من هذا القفل » اه .

وكذلك لا تجد لذة في رنة الموشح الذي يخالف الاوزان الشعرية الا اذا غني فيه، لانه خلق للغناء لا للانشاد .

اما اغاني الجنكلر فليس بين ايدينا شيء منها فنقابله بالموشحات . وانما نعتمد على اناشيد التروبادور التي ظهرت بجنوب فرنسة في القرن العاشر . وكان اصحابها يقصدون القصور، ودور الملوك، ومواسم الاعياد يتغنون بها، او يغني لهم فيها جماعة الجنكلر . وهي تتناول اغراضاً شتى كالغزل ووصف الطبيعة، والمدح والهجاء والقصص . واغراض الموشحات يقوم معظمها على الغزل والطبيعة والمدح . واناشيد التروبادور غنائية منسجمة الالفاظ، حسنة التوقيع، غير انها ضعيفة الميزة الادبية في معانيها الهزيلة، واغراضها المكرورة . ولها اسماط واجزاء لا تتوافق اوزانها احياناً، ولا تلتزم فيها القافية كما تلتزم في الشعر ؛ وانما تلتزم في كل ثلاثة اجزاء او ستة، وفي نهاية كل سمط، ويراعى في التزامها الوزن الذي وردت فيه اولًا . فهي من هذا القبيل اشبه شيء بالموشحات .

ونهضت اناشيد التروبادور في القرن الحادي عشر وهو الزمن الذي نهضت فيه

---

(١) الخدوج : مراكب النساء مفردها خِدْج . وقوله فتانات الحجيج اي يفتنّ الحجيج عن حجهم .

الموشحات، ولكن لم يصل الينا منها الا منذ منتصف القرن الثاني عشر، في حين انه وصلت الينا موشحات منذ القرن الحادي عشر ·

فاتفاق منظومات التروبادور والموشحات في اكثر النواحي يحملنا على الاعتقاد ان العرب تأثروا بالادب الاسباني الفرنسي،[1] كما تأثر الاسبانيون والفرنسيون بالادب العربي. فاخذ العرب فكرة التحرر من نظام الاوزان في اغانيهم، واخذ اولئك القافية والصور الخيالية الجميلة ·

فالموشحات اذاً ليست بعربية بحتة، انما هي مستعربة (mozarabes) كأهل الاندلس، وما في الاندلس من فنون وعادات وازياء · وكانوا في بدء نشأتها يحلّونها بالالفاظ الاعجمية كما ذكر ابن بسّام في الذخيرة ·

---

(١) غلبت الصبغة الفرنسية على الادب الاسباني الشعبي لتسرب عنصره في الاندلس مع التجار اليهود خاصة ثم مع المرسلين الكاثوليكيين الذين جازوا البيرنه، وانشأوا الديورة الكبار تضمّ اولاد الفقراء، ويعلمهم فيها اساتذة فرنسيون . وقد درس المؤرخ غستون باري صلة الادب الفرنسي بالادب الاسباني، ودل بحجج راهنة على تأثير الاول في الثاني حتى قال: « ان الادب الاندلسي في اول عهده هو فصل من تاريخ الادب الفرنسي في القرون المتوسطة. » اهـ.

اغراضها ومعانيها

الغزل . الطبيعة . الخمر . المدح . تأثير الطبيعة .
استمداد المعاني منها . المعاني لطيفة غير عميقة . قلة الابتكار .

فاما وقد علمنا ان الموشحات اخترعت من اجل الغناء ، فلا غرو ان تكون اغراضها في اول الامر مناسبة لهذا الفن ، فما ينظم فيها غير الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة . واتبعوا بها المدح لان ابهى مجالس الغناء كانت تعقد في قصور الملوك والامراء . والتغني بمناقبهم عدة التكسب للشاعر والمغني معاً . ثم توسعوا فيها الى سائر اغراض الشعر كالهجو والرثاء ، والزهد والتصوف .

واكثر ما نظمت فيه الموشحات ما اجتمع به الغزل والطبيعة والخمر والمدح . وربما استهلوا بالغزل وانتقلوا الى المدح ، ثم رجعوا الى الغزل ، فجعلوه ختاماً للموشح .

على انه مهما تعددت اغراض الموشحات فللطبيعة النصيب الاوفر . فاهل الاندلس وقد علمت شغفهم بطبيعة بلادهم ، لا يفترون عن ذكرها في توشيحاتهم ، كما لا يفترون عن ذكرها في اشعارهم . وهي في الموشحات ، اظهر واشمل . فما تقرأ موشحة لهم الا رأيت الطبيعة ماثلة بالوانها واصباغها ، وازهارها ورياضها ، ومدنها وعمرانها ، يتغنى بها الوشّاح اكثر مما يتغنى بمحبوبه . فهي الحبيب المالك عليه شغاف قلبه ، المستولي على جميع أحساسه ، يروقه منظر الزهر البليل عند الصباح ، وتشوقه بهجات الوانه ، ويملأ فؤاده عبيره ، ويخلبه الماء المنساب في الجداول والانهر ، وتطربه الاطيار تغرد على غصون الشجر . وكل صورة من صور الطبيعة عنده شاعرة حساسة ، يغوص على طبائعها ، ويستشف دخائلها ، ويتبين سرورها والمها . فاذا بابن الخطيب يقول :

أَيُّ شَيْءٍ لِأَمْرِىءٍ قَدْ خَلَصَا ، فَيَكُونَ ٱلرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهِ[1]

---

(١) خلص : صفا ، الظاهر من معناه انه لو صفا شيء لمخلوق لتمكن الروض من الحصول على هذا الصفاء لانه احق به من سواه . وقوله مكن فيه اي مكن منه ؛ ومن معاني في ان تكون مرادفة لمن .

تَنهبُ الأزهارُ منهُ الفرصا، أمنتْ من مكرهِ ما تتقيه[1]
فإذا الماءُ تناجى والحصى، وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تُبصرُ الوردَ غيوراً بَرِماً، يكتسي من غيظهِ ما يكتسي[2]
وترى الآسَ لبيباً فهماً، يسرقُ السمعَ بأذنيْ فرسِ[3]

ويقول ابن زمرك في ريح الصبا :

بليلةُ الأردانْ ، قد ضمختْ بالعنبرْ[4]
يُشيرُ غصنُ البانْ ، منها بفضلِ المئزرْ[5]

ففي هذا القفل ماء وهواء وغصن وحياة وحركة وطيب . وما الطف قوله في الصبوح :

غرّدَ الطيرُ فنبّهْ من نعسْ، يا مُديرَ الراحْ
وتعرّى الفجرُ عن ثوبِ الغلسْ، وانجلى الإصباحْ

وقوله وفيه من تأثير الاشعة واللون شيء كثير :

فالشهبُ من غارةِ الصباحْ، تُرعدُ خوفاً وتخفقُ
وأدهمُ الليلِ في جماحْ، أغنّةَ البرقِ يُطلقُ
والأفقُ في ملتقى الرياحْ، بأدمعِ الغيثِ يشرقُ[6]

* * *

(١) يقول : لو صفا شيء لمخلوق خصل الروض على هذا الصفاء، وكانت ازهاره تنهب الفرص من هذا الشيء الصافي، لانها امنت ما كانت تحذر من مكره . (٢) يقول : كما انه لا يصفو شيء لمخلوق، فكذلك لا يصفو للروض فان الكدر يشمل الازهار فبينما يكون الماء والحصى متناجيين يبدو الورد غيوراً متضجراً، يكتسي حمرة من غيظه وغيرته، اذ ليس له خليل يخلو به . (٣) الآس : شجر ورقه عطر ويعرف عند العامة بالريحان، وثمره بالحنبلاس وهو تحريف لحب الآس . شبه الآس بالرجل الحذر العاقل الذي لا يغفل عن استراق الامور وفهمها، او شبه بالرقيب المتنبه ليستمع الاخبار . (٤) الاردان : مقدم الاكمام . (٥) الفضل : بقية الشيء وزيادته . (٦) يشرق : يغص .

وَٱلسُّحْبُ بِٱلْجَوْهَرِ ٱسْتَقَلَّتْ، فَٱلْبَرْقُ سَيْفٌ مُجَوْهَرُ،
صِفَاحُهُ ٱلْمُذْهَبَاتُ سُلَّتْ، فِي رَاحَةِ ٱلْجَوِّ تُشْهَرُ[1]

* * *

كَمْ بِٱلصِّبَى ثَمَّ مِنْ مَقِيلْ، بِطِيبِهِ ٱلزَّهْرُ يَشْهَدُ[2]
وَٱلنَّهْرُ كَٱلصَّارِمِ ٱلصَّقِيلْ، فِي حِلْيَةِ ٱلنُّورِ يُغْمَدُ
وَرُبَّ قَالٍ بِهِ وَقِيلْ، لِلطَّيْرِ فِي حِينَ تُنْشِدُ[3]

وقوله متشوقاً الى غرناطة وكان بعيداً عنها :

نَسِيمُ غَرْنَاطَةٍ عَلِيلْ، لٰكِنَّهُ يُبْرِئُ ٱلْعَلِيلْ
وَرَوْضُهَا زَهْرُهُ بَلِيلْ، وَرَشْفُهُ يَنْقَعُ ٱلْغَلِيلْ[4]

* * *

سَقَى بِنَجْدٍ رُبَى ٱلْمُصَلَّى، مُبَاكِرًا رَوْضَهُ، ٱلْغَمَامْ[5]
فَجَفْنُهُ كُلَّمَا ٱسْتَهَلَّا، يَبْتَسِمُ ٱلزَّهْرُ فِي ٱلْكِمَامْ[6]
وَٱلرَّوْضُ بِٱلْحُسْنِ قَدْ تَجَلَّى، وَجَرَّدَ ٱلنَّهْرُ عَنْ حُسَامْ

* * *

وَدَوْحُهَا ظِلُّهُ ظَلِيلْ، يَحْسُنُ فِي رَبْعِهِ ٱلْمَقِيلْ
وَٱلْبَرْقُ، وَٱلْجَوُّ مُسْتَطِيلْ، يَلْعَبُ بِٱلصَّارِمِ ٱلصَّقِيلْ

* * *

عَقِيلَةٌ تَأْجُهَا ٱلسَّبِيكَهْ، تُطِلُّ بِٱلْمَرْقَبِ ٱلْمُنِيفْ[7]

---

(١) الصفاح، جمع صفيحة : وجه السيف العريض . (٢) بالصبى : اي في عهد الصبى . المقيل : موضع القيلولة وهي نومة نصف النهار . (٣) قال وقيل : اي تجاوب الطيور ومساجلاتها . (٤) ينقع : يُسكّن . الغليل : شدة العطش . (٥) الغمام : فاعل سقى . نجد : ما ارتفع واشرف من الارض . (٦) استهل : العين دمعت، والمطر انصب . الكمام : جمع كمّ وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر وينشق عنه . (٧) العقيلة من كل شيء أكرمه؛ ويريد بها غرناطة . السبيكة والمرقب : موضعان في غرناطة .

كَأَنَّهَا فَوْقَهُ مَلِيكَهْ ، كُرْسِيُّهَا جَنَّةُ ٱلعَرِيفْ[١]
تَطْبَعُ مِنْ عَسْجَدٍ سَبِيكَهْ ، شُمُوسُهَا كُلُّهَا تُطِيفْ[٢]

واليك المدح كيف تظهر فيه الطبيعة كل الظهور، قال ابن زمرك يهنئ السلطان ابن الاحمر بشفائه :

قَدْ أَنْعَمَ ٱللهُ بِٱلشِّفَاءْ ، وَٱسْتُكْمِلَتْ رَاحَةُ ٱلإِمَامْ
فَلْتَنْطِقِ ٱلطَّيْرُ بِٱلْهَنَاءْ ، وَلْيَضْحَكِ ٱلزَّهْرُ فِي ٱلْكِمَامْ

* * *

وُجُودُهُ بَهْجَةُ ٱلْوُجُودْ ، وَبُرْؤُهُ رَاحَةُ ٱلنُّفُوسْ
قَدْ لَاحَ فِي مَرْقَبِ ٱلسُّعُودْ ، وَٱسْتَبْشَرَتْ أَوْجُهُ ٱلشُّمُوسْ[٣]
فَٱلدَّوْحُ يُومِي إِلَى ٱلسُّجُودْ ، أَكْمَامُهُ حَطَّتِ ٱلرُّؤُوسْ[٤]

* * *

وَٱلزَّهْرُ فِي رَوْضَةِ ٱلسَّمَاءْ ، كَٱلزَّهْرِ قَدْ رَاقَ بِٱبْتِسَامْ[٥]
وَٱلصُّبْحُ مُسْتَشْرِفُ ٱللِّوَاءْ ، وَٱلْبَدْرُ يَسْتَقْبِلُ ٱلتَّمَامْ[٦]

ومعاني الموشحات لطيفة سائغة كاغراضها، ناعمة الخيال، مشرقة الصور، لامتزاجها بصور الطبيعة الناعمة والوانها. الا انها مكرورة معادة، طافية غير بعيدة الغور؛ وقلما وقعت على معنى يستوقفك ببراعته وعمق صورته. وانما انت تؤخذ على الاكثر، برقة الالفاظ وحسن موسيقاها، ولطف ما فيها من الاساليب البيانية المختلفة الوجوه. فيلهيك هذا الجمال الخارجي عما في داخلها من معانٍ تافهة، او مبتذلة. وربما رأيت فيها غموضاً مع

---

(١) جنة العريف : موضع في غرناطة كان مصيف لامراء العرب، ولا تزال اثاره قائمة.
(٢) العسجد : الذهب. المراد ان جنة العريف تبدو محاسنها وخضرتها، واشعة الشمس عليها كسبيكة من ذهب؛ مشرقة شموسها، طوافة متنقلة. (٣) المرقب : المكان المشرف المطل. فاعل لاح ضمير يعود على بروئه. (٤) يريد ان الطبيعة فرحت بشفاء ممدوحه وشكرت الله، فالشموس فرحت، والاثمار سجدت وظهر سجودها بان اكمام زهرها انزلت رؤوسها.
(٥) الزهر : الاقمار. (٦) مستشرف : منتصب.

خفتها، وقرب متناولها، لغلبة الصناعة اللفظية عليها، كما في موشحة لسان الدين بن الخطيب حين يقول : «وروى النعمان عن ماء السما . . .» او لحب الاغراب، وسقم التعبير، وضيق الالفاظ عن ايضاح المعنى . كقول ابن الخطيب ايضاً :

أَيُّ شَيْءٍ لِأَمْرِئٍ قَدْ خَلَصَا ، فَيَكُونَ ٱلرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهْ

وقد تقرأ الموشحة فما تجد ارتباطاً في معانيها، ولا تختلف في نظرك عن تلك الاغاني الشعبية التي تسمعها في زماننا، فتطربك بالحانها، دون ان تأبه لما فيها من سخف المعنى، وتفكك والخلال . فهذه موشحة ابي بكر بن زُهر من اشهر الموشحات، تقرأها فتلذ لك صورها والوانها، وما فيها من الفاظ الحب والخمر والطبيعة؛ فاذا تدبرت معانيها، لم تقع على شيء حقيق باللذة والاستمتاع، وانما هي قطعة صالحة للغناء :

مَا لِلْمُوَلَّهْ ، مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيقْ ، يَا لَهُ سَكْرَانْ
مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ ، مَا لِلْكَئِيبِ ٱلْمَشُوقْ ، يَنْدُبُ ٱلْأَوْطَانْ

* * *

هَلْ تُسْتَعَادْ ، أَيَّامُنَا بِٱلْخَلِيجْ ، وَلَيَالِينَا ؟
أَوْ يُسْتَفَادْ ، مِنَ ٱلنَّسِيمِ ٱلْأَرِيجْ ، مِسْكُ دَارِينَا[1]
أَوْ هَلْ يَكَادْ ، حُسْنُ ٱلْمَكَانِ ٱلْبَهِيجْ ، أَنْ يُحَيِّينَا

* * *

رَوْضٌ أَظَلَّهْ ، دَوْحٌ عَلَيْهِ أَنِيقْ ، مُورِقُ ٱلْأَفْنَانْ ،
وَٱلْمَاءُ يَجْرِي ، وَعَائِمٌ وَغَرِيقْ ، مِنْ جَنَى ٱلرَّيْحَانْ

وكذلك موشحة ابي بكر بن الابيض[2]، ليس فيها معنى شريف، على لطف الفاظ الغزل فيها :

---

(١) الاريج : العطر . فعيل بمعنى الفاعل . دارين : فرضة بالبحرين يجلب اليها المسك من الهند ويباع بها، فصار ينسب اليها، يقال مسك دارين . ومراد الشاعر ان هذا النسيم الاريج يشبه مسك دارين برائحته . (٢) ابو بكر بن الابيض توفي سنة ٥٤٤ هـ . (١١٤٩ م) .

بَرْدُ غَلِيلْ ، صَبٍّ عَلِيلْ ، لَا يَسْتَحِيلْ ، فِيهِ عَنِ ٱلْعَهْدِ[1]
وَلَا يَزَالْ ، فِي كُلِّ حَالْ ، يَرْجُو ٱلْوِصَالْ ، وَهْوَ فِي ٱلصَّدّ

وموشحة ابن الخطيب، وهي اسيّر الموشحات واخلدها ذكراً، اذا حبست نفسك عن الاستسلام الى موسيقاها، والافتتان بصورها البيانية والوانها، وغصت على معانيها تتقصاها في مواطنها، رأيت انك امام اوصاف عادية متداولة، ومعانٍ متعارفة مبتذلة. فكأن الوشّاح الاندلسي جعل همه في اخراج موشح لطيف سائغ يصلح للغناء، لا يعنيه ان يكون فيه معنى مبتكر، او معنى دقيق . فالموشحات لم تخلق لارضاء التفكير وتغذية الذهن، وانما خلقت لاثارة الخيال والعاطفة ، وابهاج النفس، والعين والاذن .

---

(١) الغليل : حرارة الحب . وقوله فيه : اي في هذا الغليل .

نفحها

ضعفه . المجاز والمحسنات اللفظية . الموسيقى .

كانت لغة الشعر التقليدي في الاندلس ضعيفة بالاضافة الى لغة الشعر العباسي، فجاءت لغة الموشحات اللين واضعف . وهي فن استعرب ولم يكن عربياً، وابتُدع ولم يكن تقليدياً . ووجد من اجل الغناء، والغناء يتطلب الالفاظ السهلة السمحة، والتعابير اللطيفة اللينة . وهذه تقود غالباً الى الضعف والركاكة لطواعيتها، وائتلافها بمبتذلات العامة . وزادها فساداً ما اشترط في خرجاتها ان تكون عامية التعبير، فاجترأ الوشاحون على التساهل اللغوي في غير الخرجة، كقول بعضهم :

يَا ظَالِمِي حَقًّا، يَكْفِيكَ مَا أَلْقَى
أَفْتَنْتَنِي عِشْقًا
بِمُرْهَفَيْ عَيْنَاكْ، أَمَا كَفَاكْ !

وافرطوا في استعمال المجاز على انواعه، فحفلت موشحاتهم بشتى الكنايات والتشابيه والاستعارات، وافتنوا في أوجه البديع، والتزموه التزاماً، لا لتحسين المعنى، وانما لتحسين اللفظ، وتوشيته . فابن الخطيب كان له مندوحة عن قوله :

وَرَوَى ٱلنُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ ٱلسَّمَا، كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ

ولكن التورية قادته الى هذا التلاعب بمعاني الالفاظ . ولم يكن لاقحام مالك ابن انس من داع لولا قوله: «وروى»، فالرواية تعني الحديث، ومالك محدث عظيم .

وهذه الاشياء وامثالها كثيرة في الموشحات، وهي التي اورثت بعضها غموضاً على سهولة الفاظها ورقتها .

وللموشحات الفاظ وتعابير خاصة لا تكاد تختلف في ذكر الطبيعة والخمر والحبيب، فيها كثير من السماء وشموسها وغمامها، وفيها كثير من الارض ورياضها وانهارها، ولها وقع جميل في النفس، وان خلت من المعاني البارعة .

تأثيرها

انتشارها . الغناء فيها . دخولها المغرب والمشرق . اثرها السيئ في الادب . الازجال . الانحدار الى العامية . الموشحات في عصر الانبعاث .

كان لظهور الموشحات اثر بليغ في الشعر والشعراء، لان اعتمادها على الغناء جعلها تطير على افواه المغنين، ويتلقفها الناس من كل صوب، ويحفظونها ويتناقلونها، حتى غلبت على الشعر واحتلت مكانه، واصبح الملوك يأنسون بها في مدائحهم، ويطربون الى سماعها، ويجيزون عليها كما يجيزون على القصائد . وبلغ من شغف الشعراء بها، انه ما اشتهرت موشحة، وتداولتها الالسن، الا انبرى جماعة منهم الى معارضتها . فقد نظم ابن سهل[1] موشحته التي اولها :

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى، قَلْبَ صَبٍّ، حَلَّهُ عَنْ مَكْنِسِ[2]
فَهْوَ فِي حَرٍّ، وَخَفْقٍ مِثْلَمَا، لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ[3]

فغنى فيها المغنون، وتحدث بها الناس . فانبرى لسان الدين بن الخطيب يعارضها بموشحته : « جادك الغيث . » فسارت كل مسير، وحجبت موشحة ابن سهل، ورويت لها عدة معارضات، قصرت عنها في المضمار .

ولم تنحصر الموشحات في الاندلس، بل جاوزت بحر الزقاق الى المغرب والمشرق، فنظم فيها المغاربة والمشارقة، ولكنهم لم يبلغوا شأو الاندلسيين، الا ابن سناء الملك المصري، فان له موشحة شرّقت وغرّبت، وهي التي يقول في اولها :

---

(١) هو ابراهيم بن سهل الاسرائيلي الاشبيلي الشاعر المشهور، من الاسبانيين المستعربين الذين تأدبوا بادب العرب، وشعره رقيق عاطفي حسن الغزل، توفي سنة ٦٤٩ هـ . (١٢٥١م) وهو في الاربعين؛ قيل مات غريقًا . (٢) حمى الحمى : منعه ودفع عنه ، والمراد هنا استغل وحده بقلبه . مكنس : الكناس وهو مأوى الظبي في الشجر . وقوله حله عن مكنس : اي عوضًا عن مكنس (٣) القبس : شعلة من النار تؤخذ في طرف عود .

كَلِّلِي، يَاسُحْبُ تِيجَانَ الرُّبَى بِالْحُلِيِّ، وَاجْعَلِي، سِوَارَهَا مُنْعَطِفَ الْجَدْوَلِ (١)

* * *

يَاسَمَا، فِيكِ وَفِي الْأَرْضِ نُجُومٌ، وَمَا، كُلَّمَا، أَغْرَبَتْ نَجْماً، أَشْرَقَتْ أَنْجُمَا (٢)
وَهْيَ مَا، تَهْطِلُ إِلَّا بِالطِّلَا وَالدُّمَى (٣)

على ان هذا الفن، مع جماله ورشاقته، كان له اثر سيّئ في الادب، اذ قاده الى الانحطاط؛ قال ابن خلدون : « ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس، واخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع اجزائه، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيه اعراباً، واستحدثوه فنًا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد. » اه .

فاقبال العامة على هذا الفن لسهولته وحسن مؤاتته، انحدر بالشعر الى العامية، فصار الى ساقط القول. غير ان الشعراء المحدثين من اهل زماننا، عادوا به الى الفصحى، ورفعوا منزلته، واعتمدوا عليه في منظوماتهم الطويلة. كما فعل سليمان البستاني في الياذة هوميروس، واحمد شوقي في قصصه التمثيلية .

والموشح، اذا روعيت فيه الفصاحة، والاوزان الشعرية، شائق فتان للطفه وحسن مساغه، فهو شعر الحب والطبيعة والجمال والفن، وشعر القصائد الطويلة التي لا يضيق عليها اختلاف وزن واحد وقافية واحدة . وهو فتح مبين في الادب العربي، يعود الفضل فيه الى الاندلس، واهل الاندلس .

---

(١) تيجان الربى : اعاليها . الحُلِيّ : اي انواع الزهر . سوارها : نهرها او جدولها وقوله : منعطف الجدول : أي تنساب مياهه منعطفةً . (٢) المراد بنجوم الارض انواع الازهار . وما : مسهل ماء . الضمير في اغربت واشرقت عائد على النجوم . واستعمال اغرب بهذا المعنى غير مسموع . ولعله جاء به موازنة لاشرق . (٣) وهي : اي النجوم . الطلا : اي الطلاء وهي الخمر . الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقشة المزينة، والمراد بالدمى وشي الطبيعة وازهارها، المسببة عن المطر وهو مجاز مرسل . وقوله تهطل بالطلاء مجاز مرسل، والمراد ما يتسبب عن المطر، فانه يروي الكروم فتمتلئ اعنابها، ثم تعصر هذه الاعناب خمرا .

منزلة الشاعر الاندلسي

إقبال اهل الاندلس على الشعر . الشاعر نديم الملك ووزيره . حياة نعمة يهددها الخطر .

شغف اهل الاندلس بالشعر كما شغف به المشارقة، فنقشوه على جدران قصورهم ومنازلهم، وجعلوه سلوى خلواتهم ومحافلهم . واقبل على نظمه الرجال والنساء، فكادت الشواعر تضاهي في العدد الشعراء . وفيهن طبقة من المحسنات البارعات كولّادة بنت المستكفي، وتلميذتها مهجة القرطبية، وحمدة بنت زياد خنساء المغرب، وحفصة بنت الحاج الركونية، وعائشة بنت احمد القرطبية، ونزهون القلاعية الغرناطية . وجميعهن مشهورات بالجمال والظرف، الا عائشة فقد استغنت بالفهم والادب والفصاحة . ونبغ شعراء من الملوك والوزراء والاطباء والفلاسفة والفقهاء؛ فشاع الشعر في صقع الاندلس شيوعاً عظيماً، ولاكته الافواه من كل جانب، واصبح الملوك لا يستوزرون غير الشعراء . فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته . فاعتز الشعراء، وارتفعت منزلتهم، وحفلت بهم دور الامراء، ودرت عليهم اخلاف الرزق . فتنعموا ورفهوا، وأترفوا ومرحوا، ولهوا وعبثوا .

غير انهم كانوا مهددين دائماً بزوال النعمة . فان الشعراء الوزراء لم ينجوا من حساد يكيدونهم، ووشاة يدسون لهم بغية اسقاطهم، كما وقع لابن زيدون عند بني جَهور، ولابن الخطيب عند بني الاحمر . وقد تطمع نفس الوزير في الاستقلال بالملك، فيخفق مسعاه، وينتقم منه سلطانه؛ فعل المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .

وسلطة الفقهاء بالاندلس جعلت الشعراء دريئة للويلات، ولطالما نكب الشاعر لاخلاقه او لآرائه، كما جرى لابن هاني فقد نفاه امير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامة، لانهم اتهموه بمذهب الفلاسفة، وفسّقوه لخلاعته .

ومع ذلك فالشاعر الاندلسي كان رفيع المنزلة، لمكانة الوزير الشاعر في دولته . ثم لولع الاندلسيين بالشعر، واقبال طبقاتهم عليه .